صنائع المعروف ! !

ظل المأمون واجما ذاهلا ، ينظر إلى الأمام نظرات تائهة حائرة ، ثم زفر زفرة حادة ، كادت تعصف بقلبه عصفاً ، وتخرج به فلذات متناثرة ، وقطعاً متفرقة . .

لقد أذهله خبر ذلك الرجل ، الذى بلغت به الجرأة مبلغ الجنون ، فلم يقم وزنا لغضب الخليفة ، وظل وفيا لقوم اقتضت سياسة الملك أن تستأصل شأفتهم ، وتجتث جذورهم ، وتمحى من الوجود كل أثر يمت إلى البرامكة بسبب . .

ليت وفاء هذا الرجل مستتر لايظهر ، خفى لايبين ، إذن لهان الخطب وسهل الأمر . . أما أن يكون على هذه الصورة العجيبة ، يأوى فى حلكة الظلام ، إلى أطلالهم وخرباتهم ، ويبيت يرثيهم ، ويعدد مناقبهم ، ويبكيهم بكاء الثكالى وحيدها ، ثم ينصرف قبيل الفجر إلى حيث يأمن على نفسه . . أما وفاؤه على هذه الصورة فهو ضرب من الخبل والجنون . . إن هذا تحدٍّ صارخ للخلافة ، لايليق أن يسكت عليه ، أو يتجاهله بحال من الأحوال . .

لقد انتشر الخبر فى أنحاء بغداد عاصمة الخلافة ، وتجاوزها إلى القرى والأمصار ، فلا بد أن يعمل عملا يثبت وجوده ، وإلا فكيف يسكت على هذه الإهانة النكراء من ذلك الرجل المأفون ؟

واستبد القلق بالمأمون ، وخيل إليه أن هذا الكلام مختلق ، وأن المراد منه إثارة القيل والقال ، وتذكير الخليفة بهذه الكارثة التى اكفهر منها وجه التاريخ ، وأن أعداءه هم الذين دبروا هذه القصة ، وحاكوا خيوطها ، وستكون النتيجة حين يفحص الأمر ، ويتروى فيه ، أن يجد هذه الخرافة من نسج الخيال . .

ليت هذه القصة تكون من نسج الخيال ، فإن هذا أهون من الحقيقة ، التى تقتضيها إزهاق الأرواح ، وإراقة الدماء ، فإنه من حين سمعها لم يهدأ له بال ، ولم يطمئن له خاطر ، ولا بد له من البحث ، والوقوف على حقيقة هذا الخبر ، وليفعل الله ما يشاء . .

* * *

وبث المأمون العيون فى كل مكان ، وأرصد غلمانه هنا وهناك ، وأرسل خادماً له ذات ليلة ، ومعه غلامان ، إلى أطلال البرامكة ، بحيث لا يراهم أحد ، ولا يقع عليهم نظر إنسان ، وأمرهم بالقبض عليه إذا رأوه . .

وكمن الثلاثة فى مكان قريب من هذه الأطلال ، وكان الليل قد نشر لواءه ، وشمل الكون سكون عميق ، وصمت عجيب ، وراح الناس يتمتعون بالنوم ، يصح به البدن ، وتهنأ الروح . .

وكتم كل من الثلاثة أنفاسه ، خشية أن يسمعه أحد يكون فى طريقه

المأمون ، إذ لا يهمهم غير هذه الجائزة . . أما الرجل فلا حاجة لهم به ! إذا لم يكن السبيل إلى بغيتهم وما يريدون !!

وسمع أحدهم وقع أقدام ، فأشار إلى صاحبيه بالصمت والانتباه ، فإن الصيد عما قريب سيقع فى الشباك ، وها هو ذا يسعى بنفسه إلى ما أعدوه له من كمين ، لن ينجو منه بحال ..

وصدق حدسه ، إذ أن الرجل وقف على هذه الأطلال ، وكأنما رأى فيها البرامكة أحياء يتحركون هنا وهناك .. فهذا خالد ، وهذا يحيى ، وهذا موسى ، وهذا محمد ، وهذا العباس ، وهذا أحمد .. كلهم يحيط بهم الخدم والحشم ، ولهم الصولة والسلطان ، والعظمة والكبرياء ، والحول والطول ، والأمر والنهى .. كأنما رآهم الرجل على هذه الحال فطفق فرحا مسرورا ..

لا يكاد يبدو عليه الألم ، أو تظهر على وجهه اللوعة والأسى ، وأخذ يقول الشعر نشيداً و إنشاء ؛ حتى تملكته نشوة عجيبة ، وصار كتلة من النشاط والحياة ..

ثم ماذا ؟ ثم اكفهرّ وجه الرجل ، وكأنما علم أن الخيال غرّر به ، وطاف به فى أودية سحيقة من كذب العاطفة ، وغش الشعور ، فصوّر له الميت حيا ، والمعدوم موجودا ، فصرخ من الألم ، وانطلق لسانه بالشعر باكيا حزينا ، يقطر دما .. !!

وفاضت دموع الثلاثة الذين كمنوا قريبا منه ، وانتابهم شعور عجيب ، يدفعهم إلى تركه شفقة به ، وعطفا عليه ، وأن مثل هذا الرجل لاينبغى أن

يراع ، وإنما يجب أن يشجع ، ويطلق سبيله ، لأنه لايؤذى أحدا ، ولا يصيب إنسانا بسوء ..

بيد أنهم تذكروا المهمة التى جاءوا من أجلها ، وتذكروا موقفهم أمام الخليفة حين يسألهم عن الرجل ماذا فعلوا به ؟ فلم يجدوا مناصا من الخروج من مخابئهم ، والانقضاض عليه فى سرعة ، خشية أن يفر منهم أو يفلت ، انقضاض النمور الفاتكة على الفريسة الضعيفة التى لاحول لها ولا قوة ..!!

وذهل الرجل من هذه المفاجأة ؛ التى لم يكن ينتظرها ، ولم تكن لتخطر له على بال ، وأدرك سببها حينما قال الثلاثة الذين أحاطوا به :

— أجب أمير المؤمنين .

أمير المؤمنين ! وما الداعى لهذه المقابلة ؟ لا بد أنه العقاب الأليم ، والعذاب القاسى ، والنكال الشديد .. ولا بد أن الخليفة علم بأمره ؛ ولا يريده إلا ليعلن جزاءه على مشهد من الناس ، فإذا السيف والنطع ، وإذا الموت المحقق ، لامرية فيه .. !!

وغشيت عيناه من الفزع والاضطراب ، وكاد يغشى عليه ، بيد أن الحراس أشفقوا عليه ، وتلطفوا به ، فقال لهم فى ضراعة ورجاء :

— دعونى أوصى بوصية ، فإنى لا أوقن بعد اليوم بحياة ..

* * *

نظر المأمون إلى الرجل نظرة صارمة ، فيها نقمة وغيظ ، وكأنما يريد

من أفكار وآراء ، ولما شعر بأن نظراته أحدثت أثرها فى نفس الرجل ، وكأنه مخدر عجيب ، قال فى قوة :

— من أنت ؟ ..

— أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك ..

واحترم المأمون الرجل حينما تكلم ، إذ بدت عليـــه أمارات العزة والكرامة ، و بدا فى حديثه الأدب الجم ، فقال المأمون :

وبم استوجب البرامكة منك ما تفعل فى خرباتهم ، وأطلال دورهم ، ودوارس قصورهم ؟ !

— بمآثرهم الجمة ، وصنائع معروفهم ..

— فَصِّل ما أجملت ..

— أيأذن الخليفة بذلك ؟ ..

— أجل ..

— إذن فاعلم يا رعاك الله ، أننى كنت قد زالت عنى نعمتى كما تزول عن الرجال ، ونالنى من الدهر العنت والإرهاق ، وكأنما كان بينى و بين النوازل ثأر قديم ، فشتت شملى ، وقرحت جفنى ، وركبنى الدين ، واحتجت إلى بيع ما على رأسى ، ورءوس أهلى ، و بيتى الذى ولدت فيه .

وطفرت الدموع من عينى الرجل ، فرق له قلب الخليفة ، واحترم حزنه ، وشاركه أحاسيسه وشعوره .. ثم أردف الرجل يقول :

— وأشار علىّ أهلى بالخروج إلى البرامكة ، وأنهم إذا عرفوا حاجتى ،

وصدق حديثي ، لن يقصروا فى مدّ يد المساعدة لى ، و بدا لى هذا الرأى كريها ، ففيه إذلال نفسى ، وجرح كرامتى وكبريائى ، غير أنى لم أجد بدأً من النزول على إرادتهم ، والإصاخة لكلامهم ، فخرجت من دمشق ، ومعى نيف وثلاثون امرأة ، وصبياً وصبية ، وليس معنا ما يباع أو يوهب .

ودخلنا بغداد ، ونزلنا فى بعض المساجد ، ولم يكن بدّ من تركهم كما هم ، والخروج إلى حيث أجد منفذاً مما أنا فيه من ضيق ، ومخرجا من هذه الكرب المستحكمة الحلقات ، التى أحاطت بى من كل ناحية . .

وأخذت أسير فى شوارع بغداد ، وأضرب فيها على غير هدى ، وأنا لا أكاد أعى شيئاً مما حولى ، و بينما أنا كذلك ، إذا بمسجد مزخرف ، فيه جماعة جلوس ، فدخلت المسجد ، وجلست معهم . .

ليست هذه جرأة ، وليس فى هذا ما يعيب ، ولكن الواقع أننى عانيت كثيراً من ألم النفس، فكنت متردداً ، أقدم رجلا ، وأؤخر أخرى، وكأنما أعتقد أن من فى المجلس يفهمون حالى كما هو ، و يعلمون علم اليقين لماذا أنا سائر هكذا فى الطريق ، ولماذا أدخل إلى هذا المسجد . . إنما أدخل طلباً للاستجداء والمسألة . .

هذا ما جال بخاطرى ، ولكنى تغلبت على نفسى ، فليس المقام مقام عزة ولا كرامة ، و إنما هو مقام حياة أوموت، ولست أملك فى هذه الساعة

obeikandi.com

بدون إرادة ، والعرق يسيل من بدنى ، وكأنما يفيض فيضاناً ، وذلك لأن السؤال لم يكن صناعتى ، وليس لى به عهد . .

وأقبل خادم ، ودعا القوم جميعا ، فقاموا ، وقمت معهم ، وسرنا حتى دخلنا دار يحيى بن خالد البرمكى ، و إذا هو جالس على دكة وسط بستان . .

واكفهرّ وجه المأمون عند ماجاء ذكر البرامكة ، وأدرك الرجل ذلك فصمت قليلا ثم قال :

— وما كدنا نسلم على يحيى حتى أخذ يعدنا ، فإذا بنا مائة وواحد ، و بين يديه عشرة من ولده ، فكملت عدتنا بذلك مائة واثنى عشر . . وحرت فى أمرى ، ماذا يفعل يحيى مع هذا الجمع العظيم من الناس ؟ وهل سيعطيهم و يمنحهم من هباته ، أم سيردهم على أعقابهم ، أم سيعطى البعض و يترك البعض الآخر ؟ . .

ولم أجد جواباً مقنعاً على أسئلتى هذه ، فلذت بالصمت . . ولكن صمتى لم يطل ، إذ خرج علينا مائة واثنا عشر خادماً ، يحمل كل منهم صينية عليها ألف دينار ، فوضعوا بين يدى كل منا صينية ، فدهشت لهذا المنظر ، وترويت فى الأمر . . !!

وأخذ الحاضرون يصبون الدنانير فى أكمامهم ، و يجعلون الصوانى تحت آباطهم . . يفعلون ذلك فى يسر وسهولة ، وكأنما هو أمر قد اعتادوه ، أو مرنوا عليه ، ولهم به عهد . . ثم إذا بهم ينصرفون واحداً بعد الآخر . !

وظللت كما أنا لا أفعل شيئاً . . الصينية أمامى ، وفيها الدنانير ، لها

openkandil.com

بريق يخطف الأبصار ، ويعشى العيون ، وبخاصة من اشتدت به الحاجة وقست عليه الحياة . . ولكنى لم أجرؤ على أخذ الصينية ، وصب الدنانير فى كمى كما فعل الحاضرون جميعاً . .

ورأى الخادم حيرتى ، وما انتابنى من ذهول واضطراب ، وبخاصة وقد بقيت وحدى ، بينما خرج الحاضرون جميعاً . . فغمزنى وشجعنى على أن أفعل كما فعل غيرى ، ففعلت بعد لأى ، ووضعت الذهب فى كمى ، وأخذت الصينية بيدى ، وصرت أرتجف هولا وذعراً ، وتمشت الرعدة فى أعضائى ، وتملكتنى فى قوة وعنف ، لم أفهم لها سببا ، أو بمعنى أدق ، لقد كنت أخشى أن أمنع من الذهاب ، وأحرم مما معى ؟ !

قال المأمون :

— ثم ماذا ؟

قال المنذر بن المغيرة ، فى فتور :

— وبينما أنا فى صحن الدار، ويحيى يرانى، إذ قال للخادم : «إيت بهذا الرجل . .» فانطلق الخادم فى أثرى ، ولم تمض لحظات حتى رددت عليه ، فأمرنى بصب الدنانير ، وما فى كمى ، وإلقاء الصينية ، ثم قال لى : « اجلس » فلم أجد بداً من الجلوس بين يديه ، وأخذت أقص عليه قصتى كما طلب ، لم أدع منها حرفاً ، ولم أبالغ فى تصوير حال أولادى وأهلى ، حينما خويت منهم البطون ، وتهدمت الأبدان والجسوم ، وكأنما وصف

obeikandl.com

الخادم أن يأتيه بولده موسى ، وما كاد يراه حتى قال له : « يا بنى هـذا رجل غريب ، فخذه إليك واحفظه بنفسك ونعمتك . . » . .

وما كدت أسمع هذا الـكلام ، حتى زال ما بى ، وتوقعت خيراً ، وعلمت أنه الفرج القريب ، وأن الله ألان هذه القلوب ، فحمدته على نعمائه وسرت مع الخادم حتى أدخلنى إلى بيت موسى بن يحيى ، فإذا به رجل بلغ من كرمه وجوده ، مبلغا لا يكاد يحيط به الوصف ، ولا يقوم بحقه بيان كائنا ما كان . .

وكأنما أراد موسى أن يشعرنى بصادق الأخوة ، وأنه ينزلنى من نفسه منزلة الأخ من أخيه ، فأرسل إلى أخيه محمد بن يحيى ، وقال له بعـد ما قدمنى إليه : « إن الوزير قد أمرنى بالعطف على هذا الرجل ، وأخشى أن يكون اشتغالى فى دار أمير المؤمنين داعياً لتقصيرى فى حقه ، فاقبضه إليك ، وحوطه برعايتك . . »

وأعجب المأمون بهذا الـكلام ، وظهرت فى وجهه علائم الدهشة مما شجع المنذر بن المغيرة أن يمضى فى رواية بقية القصة فقال :

— هذه الروح أيها الخليفة العظيم ، جعلتنى أومن بعظمة هؤلاء البرامكة ، وأعتقد أنهم بشر ليسوا من البشر ، وإنما هم فى درجة من السموّ والرفعة لا تقاس بها درجة . . وكيف لا وقد لقيت من محمد بن يحيى غاية الـكرم والجود ، والفضل والإجلال ؟ !

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل تسلمنى فى اليوم التالى أخوه العباس

ابن يحيى ، فإذا به صورة من أخويه .. كرماً ونبلا ، وجوداً وفضلا ، حتى حرت فى هذا الإجلال والتعظيم ، وقلت فى نفسى : إن هؤلاء جديرون دون ريب بما هم فيه من سامى المناصب ، ورفيع المنزلة ، وإن نفوسهم قد خلصت من شوائب الرياء ، ودنس الكبرياء المقيتة ، والتعاظم الكاذب والتظاهر الخداع ..

وأسلمنى العباس إلى أخيه أحمد ، فإذا بهم جميعاً كالحلقة المفرغة لايدرى أين طرفاها ، وبقيت هكذا فى أيدى البرامكة ، يتداولوننى عشرة أيام ، وأنا غارق فى النعيم الغامر ، والفضل الوفير .

بيد أن شيئاً واحداً كان يؤلمنى ، وكنت أفكر فيه بعنف ، ذلك أننى لم أكن أعلم شيئاً عن عيالى وأهلى ، طول هذه المدة ، أفى الأموات هم قد جر عليهم الفناء أثوابه ، وطواهم العدم فيمن طوى ، أم لايزالون فى الأحياء ، ينعمون بنسيم الحياة ، ولذة الوجود ؟!

وما كاد ينصرم اليوم العاشر ، وتشرق شمس الحادى عشر ، حتى جاءنى أحد الخدم ، وقال لى فى أدب جم : «قم فاخرج إلى عيالك بسلام» وكدت أصعق ، إذ كيف أخرج بسلام وأنا خالى الوفاض ؟ لقد سلبت منى الدنانير ، وأخذت منى الصينية ، ولم يعد معى شيء ، فما قيمة هذا الكرم الذى لقيت منهم ، حين أخرج على هذه الحال أخيراً ، وأعود إلى أولادى وأهلى خالى الوفاض ؟ لقد كان من الخير لى ، أن أذهب من أول

فألف دينار لها قيمتها عند من لايملك شيئا ، أو بالحرى عند الجائع ، الذى لايجد ماينفق منه . .

ولم يكن لى بد من الخروج ، فخرجت والخادم ينتقل بى من حجرة إلى حجرة ، وهو يرفع الأستار فى طريقى ، واحداً بعد الآخر حتى قال لى آخر الأمر : « مهما يكن لك من حاجة فارفعها إلىّ ، فإنى مأمور بقضاء جميع ماتأمرنى به » .

ووقع هـذا القول من نفسى موقعاً حسناً ، واستبشرت به إلى حد كبير ، وأيقنت أن الأمر قد دبره الله على خير مايحب ، وأن الغمة قد تكشفت ، والكرب قد زال . .

قال المأمون :

— وماذا حدث بعد هذا ؟

فقال المنذر فى تؤدة وأناة :

— حدث ما أدهشنى ، وأوقعنى فى الحيرة من شدة الفرح ، وكثرة السرور والمرح . . ظهرت لى حجرة مضيئة مشرقة ، قد عبق جوها برائحة العود والمسك ، و إذا بأولادى وأهلى ينعمون فيها بخير ماينعم الناس ، من متع الحياة ، وزينة الوجود . . !!

لقد كانوا يرتدون بعد الأسمال القذرة ، أفخر الثياب ، وأجود أنواعها ، وبدت عليهم آثار النعمة ، وعلائم المتعة ، وآيات العز والرفاهية ، مما جعلهم أشبه بالأمراء والملوك . .

openkandil.com

ثم جاءت العطية ، وإذا بها ألف ألف درهم ، وعشرة آلاف دينار ، ومنشوران بضيعتين ، والصينية التى كنت أخذتها بما معها من الدنانير .. !!

* * *

وصمت الرجل مدة، فلقد خدرت أعصاب الحاضرين، وتطلع بعضهم إلى بعض فى حذر، خشية أن يغضب من هذا الخليفة المأمون، وطافت الأخيلة فى جو طليق ، وتصورت ذلك النعيم الذاهب ، والعظمة الزائلة ، وما فعل الدس والحسد ، وكيف دالت دولة هذه الأسرة ، التى مهما اختلفت فيها أقوال القائلين ، فلن ينكر إنسان أنها أضاءت حقبة من تاريخ الأمة الإسلامية ، وأمكنها أن تبنى لها مجداً، أساسه اجتذاب القلوب، والسيطرة عليها باللين ، وحسن السياسة ؟..

ولم يدر أحد ماجال فى ذهن المأمون ، ولكن لاينكر الحاضرون أنه كان فريسة لمعترك العواطف ، واصطراع الأحاسيس ، وما كاد يهدأ الجو قليلا ، حتى قال المنذر :

— وكم سنة مكثت فيهم ؟ .

— لقد مكثت فى دورهم ثلاث عشرة سنة ..

— وأنت على ماوصفت ؟ إكراماً وإجلالا ؟ ! .

— نعم .. لقد كنت فيهم ، كأنى واحد منهم ، ولا يعلم الناس أأنا

— ثم ماذا حدث بعد هذه المدة ؟ ..

— ثم دالت دولتهم على يد الخليفة هرون الرشيد، الذى عرف كيف ينزل بهم فواجع الدهر، وكوارث الزمن، حتى أصبحوا خبراً يروى، وقصة تقص ، بعد أن كانوا كما تعرف .. وكأنما أبى الدهر إلا أن يربطنى بعجلتهم ، فينالنى ما نالهم ، ولكن مع الفارق .. لقد استراحوا من الدنيا وخلصوا من آلامها وأحزانها .. أما أنا فلا أزال أصطلى بنارها ، وأتلظى بحرّها ، ولا أكاد أعرف متى يأذن لى الله بالخلاص من هذا العذاب ، الذى أقاسيه ، والبلاء الذى أعانيه .

— أمعنى هذا أنك تشكو الفقر والحاجة ؟ ..

— يا أمير المؤمنين .. لقد أجحفنى عاملك عمرو بن مسعدة ، وألزمنى مالا فى هاتين الضيعتين ـ اللتين وهبهما لى البرامكة ـ لا يفى دخلهما به .. !!

— إذن فقد آذيناك ، وحق لك أن تفعل مافعلت ..

— لقد كنت أقصد إلى منازل البرامكة كلما عضنى الدهر ، وأثقل على الهم ، فأندبهم ، وأقضى بعض مايجب على من الشكر ، وفاء لعهدهم ، وتقديساً لذكرهم .

— كفى يابن المغيرة .. سنعرف كيف ننصفك ..

* * *

و بعث المأمون فى طلب عمرو بن مسعدة ، ليعرف منه حقيقة الأمر ،

وواقع الخبر ، وكان عمرو عاملا على العراق ؛ لم يعرف عنه الظلم والعدوان ، ولكنه اعتقد أن مافعل بأتباع البرامكة ، تقرب إلى الخليفة ..

ولما مثل بين يدى المأمون قال له :

— أتعرف ياعمرو هذا الرجل ؟

— نعم أعرفه يا أمير المؤمنين .. هو من صنائع البرامكة ..

— فكم أخذت منه من الضرائب على ضيعتيه ؟

— كذا وكذا ..

وذكر عمرو بن مسعدة ما أخذه منه ، فرده المأمون على الرجل ، على المنذر بن المغيرة ، وقال له :

— ستحيا بيننا ، وتعيش فينا أنت وعيالك ، على ما كنت عليه أيام البرامكة .. أيرضيك هذا ؟ ..

ولكن الرجل بدل أن يجيب بالقبول؛ أخذ يبكى و ينتحب حتى رق له قلب المأمون ، ورقت له قلوب الحاضرين ، وتملكت الدهشة الجميع ، وحاروا فى فهم سبب هذا البكاء ، والدافع عليه ، فقال المأمون :

— ياهذا أحسنا إليك ، برد ماساب منك ، فما يبكيك ؟! .

— يا أمير المؤمنين ، وهذا أيضا من صنائع البرامكة ..

— من صنائع البرامكة ؟!.

obeikandl.com

— أجل ، فأنا لو لم آت منازلهم ، فأبكيهم وأندبهم ، حتى اتصل خبرى إلى أمير المؤمنين، وفعل بى مافعل ما كنت أصل إلى أمير المؤمنين..!!

ووجد الجميع فى هذا الكلام لباقة و براعة ، ولكنه على كل حال صدق لا كذب فيه ، فعجبوا لهذا الإخلاص ، وذلك الوفاء لقوم ماتوا ، وأصبح ذكرهم مدعاة للشك والارتياب ..

ودمعت عينا المأمون ، وظهرت عليه علائم الحزن ، فقال :

— لعمرى ، هـذا من صنائع البرامكة .. فعليهم فابك ، و إياهم فاشكر .. !!

obeikandi.com